مجلة "نتائج الفكر" الصادرة عن معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة
العدد05، 06 . السنة 2021، ص 179–193
ISSN 2477-992x / EISSN 2773-2762

التناص في شعر مفدي زكريا

د. لخضاري صباح[1]
1 المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة s.hamidou@yahoo.fr

ملخص البحث

لقد كان أثر الثقافة العربية الإسلامية التي تشبّع بها مفدي زكريا في تنشئته العلمية الأصيلة، في كل من الجزائر وتونس، وحفظه للقرآن الكريم منذ نعومة أظافره، واضحا على أسلوبه ومعجمه الشعري وأثرت لغته وقوتها، فكان القرآن الكريم والشعر العربي القديم والحديث والمعاصر له والحكم والأمثال العربية معينه الشعري الذي لا ينضب، وأصبح الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين النصوص الشعرية والأمثال والحكم من أبرز الخصائص الفنية المتجلّية في أسلوب مفدي زكريا وشعره، معجما وإيقاعا وتصويرا. وهذا المزج بين مختلف المشارب والمصادر الإبداعية وتفاعلها في نصوص مفدي زكريا جعل شعره متسما بروح المحافظين الإحيائيين وبروح الرومانسيين.

ونورد في هذا المقام بعض التناصات القرآنية والشعرية على سبيل التمثيل لا الحصر لأنها كثيرة؛ يعدّ القرآن الكريم من أهم مصادر الصورة الشعرية عند مفدي زكريا. فقد كان يستقي مشاهده التصويرية والإيقاعية من مشاهد القرآن الكريم وجرس ألفاظه، لما يمتلكه تعبيره المنزَّه من قوة تأثيرية على المتلقي.

Abstract:

The Arab-Islamic culture that Moufdi Zakaria imbibed with his authentic scientific upbringing, in both Algeria and Tunisia, and his memorization of the Holy Qur'an from an early age, had a clear impact on his style and poetic lexicon and influenced his language and strength, so the Holy Qur'an, ancient, modern and contemporary Arabic poetry, wisdom and Arab proverbs Mu'inah al-Sha'ari is inexhaustible, and the quotation from the Noble Qur'an and the inclusion of poetic texts, proverbs and wisdom are among the most prominent artistic characteristics that are evident in the style of Mofdi Zakaria and his poetry, a dictionary, rhythm and imagery. This blending of different stripes and creative sources and their interaction in the texts of Mofdi Zakaria made his poetry marked in the spirit of revivalist conservatives and the spirit of romantics . We mention in this regard some Quranic and poetic intertextualities as a representation but not limited to because they are many The Noble Qur'an is

one of the most important sources of poetic imagery for Moufdi Zakaria. He used to draw his pictorial and rhythmic scenes from the scenes of the Noble Qur'an and the bell of his words, because his impeccable expression possesses the influence on the recipient.

المؤلّف المرْسِل: لخضاري صباح ، **الإيميل**: s.hamidou@yahoo.fr

مقدمة:

لعلّ أول من تحدث عن مفهوم التناص في ثوبه الحديث والحداثي هو ميخائيل باختين" Mikhail Bakhtin"، أثناء حديثه عن الكلمات غير البريئة من معناها السابق، حتى وإن أدخلت في سياق آخر، فهي تظل محملة بكثافتها الإيديولوجية والاجتماعية والثقافية السابقة.

والتناص عند باختين يعني الوقوف على حقيقة التفاعل الحاصل بين النصوص داخل النص الواحد.

أما جوليا كريستيفا " Julia Kristeva" فترى أن التناص هو عبارة عن تفاعل نصي في نص بعينه، وكل نص عندها إنما هو امتصاص لنصوص أخرى. وقد تطور مفهوم التناص على يد مجموعة من النقاد واللغويين والفلاسفة أمثال ديريدا وبارت وفوكو وجرار جنيت.

ومفهوم التناص كمفهوم أدبي إبداعي ونقدي كان موجودا عند المبدعين العرب القدامى، والذين أرخوا لهذا المفهوم إبداعا ونقدا في أمهات الكتب الإبداعية والأدبية والنقدية، إنه تشرب أساليب الشعراء والخطباء السابقين بحفظ أشعارهم وخطبهم ونسيانها عند الإبداع، لذا كان كل شاعر في بدايته الأولى يتخذ شاعرا فحلا ويروي أشعاره، وينتهج أسلوبه في الكتابة، والتاريخ الأدبي حافل بالأمثلة. وهذا ما يسمى بالنسج على المنوال كما وسمه ابن خلدون، فالشاعر الناجح والأديب البارع هو الذي ينسج على المنوال بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة. وقد تسابق العديد من الشعراء على الإتيان بأفضل ما جاء به غيرهم من الشعراء. كما أكدوا على أن كل كلامهم ما هو إلا إعادة وتكرير لكلام السابقين قبلهم ونسج على قوالبهم الأسلوبية. ومما يؤيد هذا الكلام قول علي بن أبي طالب كرم الله:" لولا أن الكلام يعاد لنفد."[1]

وورد في كتاب العمدة لابن رشيق أن ابن سلام الجمحي(ت 232هـ) ـ وغيره من المؤلفين ـ يرى أن الشعر كان في الجاهلية في قبيلة ربيعة وكان أول من قصد القصائد هو مهلهل بن

ربيعة(ت531م) خال امرئ القيس بن حجر الكندي(ت 540م)، الذي يؤكد في بيت له انه نسج على منوال امرئ ابن حمام وسلك طريقه في الوقوف على الأطلال حين قال:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكي الديار كما بكى ابن حمام[2]

وغير بعيد عن هذا المعنى نجد عنترة بن شداد يقول:هل غادر الشعراء من متردم

يدل على أن عنترة أدرك أنه لم يقل الشعر إلا بعد فرغ الناس منه ولم يتركوا له ما يقول. [3]

وهذا النسج على المنوال هو ما وجدناه في شعر مفدي زكريا المتشبع بالثقافة العربية الإسلامية. والمفتون بسلوك طرق النظم والتعبير الخاصة بالقرآن الكريم والشعراء المجيدين، والتي سنحاول في هذا المقال استجلاء بعضها من شعره.

1- التناص القرآني:

يقول مفدي زكريا في قصيدة " ته يا عمان بنصر الله" [من البسيط]:

تَبَّتْ يَدَا قَوْمٍ (نُدُن) أَبَالِسَةٍ، تَسْعَى لِجَعْلِ بَنِي الْقُرْآنِ أَيْدِ سَبَا[4]

فعبارة "تبت يدا" تذكرنا بمجرد قراءتها بسورة المسد المكية في آيتها الأولى (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ).[5] فيتبادر إلى الذهن أحداثها وشخصياتها، فمفدي يستعمل العبارة القرآنية الموحية بدلالة ظاهرة وغائرة.

ويستعمل العبارة نفسها في بيت آخر في قصيدة " الوداع على النادي" [من المتقارب]:

وَ تَبَّتْ يَدَا ظَالِمٍ مُجْرِمٍ لِرُوحِ تَضَامُنِنَا مَزَّقَا[6]

ويقول في قصيدة " إقرأ كتابك" وهي تهنئة لتوفيق مدني على إصداره كتاب "كتّاب الجزائر" [من البسيط]:

اقْرَأْ كِتَابَكَ لِلأَجْيَالِ يَا (مَدَنِي)، كَفَى بِنَفْسِكَ صَدّاحًا عَلَى فَنَنِ

و احْتَرْ مِنْ الْخُلْدِ أَقْلاَمًا، وَ حُطَّ بِهَا، و اذْكُرْ لَنَا سَالِفَ الأَطْلاَلَ وَالدِّمَنِ[7]

والبيت مقتبس كما هو معروف من قوله تعالى (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا). [8]

ووظف الإيحاء إلى هذه الآية الكريمة في قصيدة أخرى بالعنوان نفسه " إقرأ كتابك " مكتفيا بعبارة " اقرأ كتابك "، فيقول مخاطبا الشعب الجزائري في الذكرى الرابعة لاندلا ع ثورة التحرير [من الكامل]:

هَذا (نُفَمْبَرُ)، قُمْ ! وَ حَيِّ المِدْفَعَا وَ اذْكُرْ جِهَادَكَ ... وَ السِّنِينَ الأَرْبَعَا

واقْرَأْ كِتَابَكَ، لِلأَنَامِ مُفَصَّلاً تَقْرَأْ بِهِ الدُّنْيَا الحَدِيثَ الأَرْوَعَا![9]

ونجده في قصيدة "وهل الجزائر غير تونس"، يصف تونس وكفاح أبنائها ضد المستعمر، فلا يجد أمامه غير التعبير القرآني ليسعفه في الوصف مدعما ومقويا أسلوبه الشعري. يقول [من الكامل]:

و الزَّرْعُ أَخْرَجَ شَطْأَهُ بِحُقُولِهَا وَ مَضَى، يَصُدُّ الْغَاصِبَ الضَّلِيلاَ[10]

واستعمل العبارة نفسها في قصيدة " فليشهد التاريخ صدق جهادنا" لتأدية دلالة أخرى وهي خصوبة الأرض وعشق الفلاح المغربي لها، يقول [من الكامل]:

و الزَّرْعُ أَخْرَجَ في جَنَانِكَ شَطْأَهُ فَانْصَبَّ يَعْشَقُ أَرْضَهُ الْفَلاَّحُ! [11]

وقد وظف الآية نفسها في قصيدة " وتعطلت لغة الكلام " ليصف قوة الشعب والتحامه مع قضيته المقدسة. جعلته يقوم لحصاد النتيجة وهي تحرير الجزائر من الاستعمار والذل والهوان. يقول [من الكامل]:

و الزَّرْعُ أَخْرَجَ في الجَزَائِرِ شَطْأَهُ فَمَضَى وَ هَبَّ إِلَى الحَصَادِ كِرامُ[12]

هذه العبارة مقتبسة من قوله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، والذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوانًا، سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنَ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ). [13]

وفي قصيدة " الذبيح الصاعد" يدعو السماء أن تصعق المواطن المستضعف الجبان، الذي ألف الذل والهوان، ولم يثر عليهما، كما دعا الأرض أن تبلع القانع بوضعه المهين، والخاضع لذل المستعمر،حتى تبلدت أحاسيسه، وقد استلهم مفدي تعبيره من قوله عزّ وجلّ (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ). [14] يقول [من الخفيف]:

يا سَمَاءُ، اصْعَقِي الجَبَانَ، و يَا أَرْ ضُ ابْلَعِي القَانِعَ الخَنُوعَ البَلِيدَا[15]

ويستلهم من ليلة القدر انتفاضة الجزائر العظمى فيقول [من المتقارب] :

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيْلَةَ قَدْرٍ وَ أَلْقَى السِّتَارَ عَلَى أَلْفِ شَهْرِ
وَ قَالَ لَهُ الشَّعْبُ أَمْرُكَ رَبِّي وَ قَالَ لَهُ الرَبُّ: أَمْرُكَ أَمْري!!
...نُفَمْبَرُ غَيَّرْتَ مَجْرى الحَيَاة، وَ كُنْتَ . نُفَمْبَرُ . مَطْلَعَ فَجْرٍ ! [16]

فالشاعر في البيت الأول استوحى عظمة الثورة الجزائرية المظفرة التي انطلقت ليلة الفاتح من نوفمبر، والتي غيرت مجرى تاريخ الجزائر من الاستعمار والاستبداد والقيود، إلى الحرية والنور والانطلاق، بليلة القدر العظيمة التي فيها نزل القرآن الكريم وغيّر مسيرة العرب العقائدية والحضارية . والناس كافة . وجعلهم يشيحون بوجههم عن عبادة الأصنام والعباد إلى عبادة رب العباد، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الجهل والأمية إلى الرقي والازدهار والحضارة بكل انفتاحها وآفاقها.

ونجد مفدي لم يستوح فقط من سورة القدر عظمة ليلة القدر وإنما تشرب حتى جرس ألفاظها القوي، وإيقاعها الشجي. يقول عز من قائل(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ، لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ المِلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).[17]

وقال من قبل في قصيدة " و قال الله " مستوحيا أيضا موضوعها من ليلة القدر، [من الوافر]:

دَعا التَّاريخُ لَيْلَكَ فَاسْتَجابا (نُفَمبَرُ !) هَلْ وَفَّيْتَ لَنَا النِّصَابَا؟
و هَلْ سَمِعَ المجيبُ نِداءَ شَعْبٍ فَكانَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ الجَوابَا؟
تَبَارَكَ لَيْلُكَ المَيْمُونُ نَجْمًا وَ جَلَّ جَلاَلُهُ، هَتكَ الحِجَـابَا!
زَكَتْ وَثَبَاتُهُ عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ قَضاها الشَّعْبُ، يَلْتَحِقُ السَّرَبا
... مَلائكُ بِالفَواتِكِ نَازِلاتٍ بإِذْنِ اللهِ ، أَرْسَلَها خِطَابَا
و هَزَّتْ ثَوْرَةُ التَّحْريرِ شَعْبًا فَهَبَّ الشَّعْبُ يَنْصَبُ انْصِبَابَا
تَنَزَّلُ روحُهَا، مِنْ كُلِّ أَمْرٍ... بِأَحْرَارِ الجَزَائِرِ، قَدْ أَهَابَا[18]

ونجده في القصيدة نفسها، يتحدث عن عظمة ليلة الفاتح من نوفمبر مستوحيا من سورة المزمل قدسيتها وقوة نزول الوحي على النبي صلى الله عليه و سلم في قوله عز من قائل (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً). [19] يقول مفدي مستلهما منها قوله [من الوافر]:

بِنَاشِئَةٍ هُناكَ، أَشَدُّ وَطْأً وَ أَقْوَمُ مَنْطِقا، وَ أَحَدُّ نَابَا[20]

وأثناء تصويره غابة باينام، نجده يقتبس من قوله عزّ وجلّ(والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ). [21] فيقول [من المتقارب]:

وَ يَلْتَفُ سَاقٌ بِساقٍ، فَنَصْبُو فَيَغْمُرُنَا مُلْتَقَى الفِكْرِ نُصْحَا[22]

ولتصوير صمود الشعب الجزائري على مصيبته وإيمانه بنصر الله وباليسر بعد العسر، اقتبس مفدي قوله عز وجلّ(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا). [23] فدبج به قوله الفني، قائلا [من الطويل]:

و لَبَّاكَ شَعْبٌ كَادَ يَفْقِدُ ظَنَّهُ بِوَعْدِكَ لَوْلاَ أَنَّهُ يَحْفَظُ الذِّكْرَا
و يَقْرَأُ فِي التَّنْزِيلِ عِنْدَ صَلاَتِهِ بِأَنَّكَ بَعْدَ العُسْرِ تَغْمُرُهُ يُسْرَا[24]

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة لاقتباسات مفدي القرآنية لأنها كثيرة جدا، وتستأهل كما قلنا سابقا دراسة لوحدها.

2- التناص الشعري:

أما التناص الشعري فهو كثير أيضا في شعر مفدي زكريا، إذ يضمن شعره العديد من الأبيات لشعراء آخَرين قدماء ومحدثين، يرى فيها ما يكمل معنى قصيدته ويتممه، مما يدل على سعة اطلاعه وكثرة حفظه لأشعار غيره من الشعراء ممن عرفوا بنبوغهم الشعري، والجميل أنه ينسج تفاعلا جميلا بين أبيات قديمة وأخرى حديثة في قصائده، مثال ذلك قصيدة "ألا في سبيل المجد" فهو في هذه القصيدة جمع نصوص امرأ القيس والمعري وشاعر البادية المصري محمد عبد المطلب ومعروف الرصافي ومزج بينها على اختلاف عصور هؤلاء الشعراء، وهو في تنصاته الشعرية نجده تارة يستخدم جزءا من البيت المضمن وتارة شطرا منه فقط وتارة يستخدم البيت كاملا، ومفدي في استعماله لهذه الأبيات، قد يترك معناها السابق وقد يحور هذا المعنى إلى معنى آخر يريده.

أ) تضمين الشعر القديم:

قال متضمنا بيت امرئ القيس مكتفيا بعبارة (قفا نبك)، [من الرمل] :

كَمْ بَكَيْنَا مَعْ (قِفَا نَبْكِ)، فَلَمْ نَكُ نَبْكِ (كَامْرِئِ القَيْسِ) قِيَامَا[25]

ويقول متضمنا البيت نفسه، [من الطويل]:

أَلِفْنَا بُكَاءً... مُنْذُ أَنْ قَالَ (قَيْسُنا) قِفَا نَبْكِ... لَكِنَّا بَكَيْنَا، وَ مَا قُمْنَا ![26]

ويقول أيضا في قصيدة " هو الشّعب"، [من الطويل]:

وَ مَنْ قَالَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ كَفَاكُمُو؟ عَلَى حَائِطِ المَبْكَى قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى؟[27]

ويضمن بعض الأبيات من لامية امرئ القيس " ألا عم صباحا أيُّها الطلل البالي" في قصيدته " ألا في سبيل المجد: الإسلام يتكلم"، نذكر منها بيتين فيقول، [من الطويل]:

تَدَرَّعْتُ بِالعَزْمِ الصَّدُوقِ، فَلَمْ تَكُنْ سِوَى القُبَّةِ الزّرْقَاءِ مَطْمَحَ آمَالِي

" وَ لَوْ أَنَّمَا أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي . وَ لَمْ أَطْلُبْ . قليلٌ مِنَ المالِي"

" وَ لَكنّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ، وَ قَدْ يُدْرِكُ المِجْدَ المؤَثَّلَ أَمْثَالِي"[28]

كما ضمن شعره بيت زهير بن أبي سلمى الشهير[29]، وذلك في قوله، [من الطويل]:

سَئِمْتُ تَكَاليفَ الزَّمانِ، وَ قَدْ سَمَا بِنا مَرْكَبُ الأَيّامِ بَحْرا طَمًّا صَعْبا [30]

وفي قصيدة "ابن زيدون بين العظمة والحب" يعبق أريج إيقاع رثاء الخنساء لأخيها صخر (يؤرقني التذكر حين أمسي)[31]، وتأوهات البحتري في سينيته (صنت نفسي عمّا يدنس نفسي)[32] التي نفّس فيها عن روحه المتألمة، وذكّر نفسه والمتلقي بأن دوام الحال من المحال، ولأن المقام هو رثاء عهد ابن زيدون شاعر الحب والطموحات السياسية فقد وظف الشاعر هذين النصين الغائبين للتعبير عن حسرته على ابن زيدون، مثلما تحسرت الخنساء على أخيها صخر وتحسر البحتري على الخليفة المتوكل. يقول في مطلع هذه القصيدة، [من الخفيف]:

عادَني، مِنْ ظِلالِ أَمْسِكَ أَمْسي بَيْنَ مَاضي الأَسَى، وَ أَحْلاَمِ أُنْسِي

وَ شَجَانِي مِنْ ذِكْرَياتِك، كَوْنٌ عَلَوِيُّ السِّمَاتِ، أَرْهَفَ حِسّي[33]

ونلمس تأثر مفدي زكريا بقصيدة أبي فراس الحمداني " أراك عصي الدمع"[34]عند قراءة قوله، [من الطويل]:

وَأَنْتَ العَصِيُّ الدَّمْعِ، إِنْ حَلَّ طَارِقٌ أَلَسْتَ الّذِي لاَ تَرْهَبُ الإِنْسَ وَ الجِنّا[35]

وفي قوله أيضا [من البسيط]:

سَيَذْكُرونَ، إِذا اللَّيْلُ الرَّهيبُ سَجَى وَ جَلَّ الخَطْبُ، أَنِّي في الدُّجَى فَلَقُ[36]

أما روح المتنبي فإننا نجدها سارية في شعر مفدي، و يعد المتنبي من أهم الشعراء الذين تأثر بهم مفدي زكريا، ويظهر هذا التأثر خاصة في اللغة والمبالغة والحكمة وفي الاعتداد بالنفس وإظهار النبوغ في قول الشعر، يقول مفدي [من البسيط]:

حَلَّقْتُ كَالنَّسْرِ، في آفَاقِ حَاضِرِنَا و غُصْتُ كَالسِّحْرِ، فِي أَعْمَاقِ مَاضينَا
كَمْ صَفَّقَتْ لِأناشيدي، مَدافِعُنا وَ أَطْرَقَتْ لِتَسَابيحي، نَوَادينَا
فَكَانَ شِعْري وَ الرَشَّاشُ فِي مَرَحٍ هَذَا يُغَنِّي وَ ذا، يُزْجي التَّلاَحينَا وَكان لِلْجَيْشِ تَنْزيلاً، يُرَتِّلُهُ وَ قَدْ تَنَزَّلَ يَفْتِكُ المَيَادينَا[37]

ويقول [من الكامل]:

مَوْلاَيَ خُذْهَا نَفْحَةً مِنْ شاعِرٍ مَا كَانَ يَوْمًا فِي القَريضِ يُدارِي
كَلِماتُهُ بِالمُعْجِزَاتِ طَوَافِحٌ وَ حَديثُهُ كَالكَوْكَبِ السَيَّارِ
وَ رُوَاتُهُ، عَجَبٌ، بِكُلِّ مَحَلَّةٍ لاَ فَرْقَ بَيْنَ مُجَاهِدٍ، و هُزارِ[38]

وقال أيضا [من الطويل]:

و رُضْتُ القَوافِي الجَامِحَات، فَأَسْلَمَتْ و نَادَيْتُ عِمْلاقَ القَريضِ، فَلَبَّانِي
سُهُولَتُهَا تُغْري البَسيطَ، و أَنَّهَا مِنَ العُمْقِ،تَسْتَعْصِي،عَلَى كُلِّ وَزَّانِ[39]

وقال في قصيدة " عيد وحدتي" مفتخرا بشاعريته، [من الخفيف]:

أَنا مَنْ رَدَّدَ الخُلُودُ نَشيدي، و شَدا الكَوْنُ لِلْبَقَاءِ بِلَحْنِي

أَنا مَنْ أَلْهَبَ الشُّعُورَ بِشِعْرٍ أَزَلِيّ كَالعَارِضِ المُرْجَحِنّ
أَنَا مَنْ عَلَّمَ القَنَابِلَ وَ الرَشْـ شَاشَ فِي السَّاحِ أَنْ تُوَقِّعَ وَزْنِي
أَنامَنْ أَلْهَمَ المِجَاهِدَ رُوحًا، فانْبَرَى لِلْوَغَى يُبِيدُ وَ يُـفْنِي
أَنَا مَنْ خَلَّدَ الجَزَا ئِرَ فِي الدُّنْ يا، و مَنْ لَقَّنَ ابْنَها كَيْفَ يَبْنِي
أَنا مَنْ أَسْكَرَ الوُجودَ بِأَنْغَا مِي ، وَ مَنْ هَزَّ عِطْفُهُ بِالتَّغَنِّي
أَنَا مَنْ هَدْهَدَ الشِّراعَ عَلَى نَهْـ ـرِ دِماها بِصادِحاتِي وَ فَنِّي[40]

والقارئ يلاحظ هنا تكرار الضمير الـ"أنا"، الذي يدل على الاعتداد بالنفس، وإن كان لم يصل إلى درجة كبرياء المتنبي واعتداده بنفسه الذي أسمعت كلماته الأصم وجعلت الأعمى مبصرا[41].

كما وظف مفدي أبيات المتنبي المشهورة والأكثر تداولا كقوله مضمنا شطرا من بيته[42]، وهو ما يسمى في البلاغة العربية بالتضمين المشطور، [من الكامل]:

" لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى" حَتَّى تُغَسَلَ بِالدِّماءِ بِطاحُ[43]

وضمّن أيضا جزءا من بيت له[44]،ليصف لامبالاته بعذاب السجن ووحشته، إذ ينام ملء جفونه مسرورا وإن كان نومه على الأشواك، فهو غير مهموم ولا قلق جرّاء ذلك.يقول [من البسيط]:

أَنامُ مِلْءَ عُيُونِي، غِبْطَةً وَرِضَى عَلَى صَياصيكَ، لاَ هَمٌّ وَلاَ قَلَقُ[45]

وعند قراءة شعر مفدي يظهر جليّا تأثره بقصيدة أبي تمام البائية التي أنشدها في فتح عمورية[46]، يقول في قصيدة " وتعطلت لغة الكلام" [من الكامل]:

السَّيْفُ أَصْدَقُ لَهْجَة مِنْ أَحَرُفٍ كتِبَتْ، فَكَانَ بَيانُهَا، الإِبْهَامُ
وَ النَّارُ، أَصْدَقُ حُجَّةً، فَاكْتُبْ بِهَا مَا شِئْتَ، تُصْعَقُ عِنْدَهَا الأَحْلاَمُ
إِنَّ الصَحائِفَ، لِلصَّحائِفِ أَمْرُهَا وَالحِبْرُ حَرْبٌ، وَ الكَلاَمُ كِلاَمُ
عِزُّ (المكاتِبِ)، فِي الحَيَاةِ (كَتَائِبٌ) زَحَفَتْ، كَأَنَّ جُنُودَهَا الأَعْلاَمُ
خَيْرُ المحافِلِ، فِي الزَّمانِ جَحَافِلٌ رُفِعَتْ، عَلَى وَحَداتِهَا الأَعْلاَمُ
لُغَةُ القَنَابِلِ، فِي البَيَانِ فَصيحَةٌ وُضِعَتْ، لِمَنْ فِي مِسْمَعَيْهِ صُمامُ [47]

وقد علّق الوناس شعباني على هذا المقطوعة قائلا:" لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن مفدي زكرياء لم يأت بشيء جديد في هذه المقطوعة، إن كل ما فعله هو أنّه قدّم لنا نفس الفكرة في صورة تختلف بعض الشيء من حيث هندسة النص. أما الصورة الفنية فتكاد تكون هي نفسها."[48]

ويستلهم مفدي في " إلياذة الجزائر" من القصيدة نفسها روح التحدي وتفضيل قوة السلاح، مع اليقين بالنصر، والملاحظ في هذه الأبيات تشخيص الرصاص الذي لعلع صوته مدويا، فعاف القلم الكتابة في القضية، لأنه يؤمن بقوة السلاح. فالمدافع والقنابل تصوغان كلامهما بالنار، أما الحديد فيرفض الاستماع لأي حديث كيفما كان، إذا لم يكن من شعر مفدي زكريا الحماسي والنضالي الذي يلهب الشعور، ويؤجج حماس المجاهد الذي يندفع بروحه فداء في سوح الوغى، يقول [من المتقارب] :

و لَعْلَعَ صَوْتُ الرَّصَاصَ يُدَوّي فَعَافَ اليَرَاعُ خُرافاتِ حِبْرِ!!
و تَأْبَى المِدَافِعُ صَوْغَ الكَلامِ إذا لَمْ يَكُنْ مِنْ شُواظٍ وَ جَمْرِ !
وَ تَأْبى القَنَابِلُ طَبْعَ الحُرو فِ إِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ سَبَائِكَ حُمْرِ !
وَ تَأْبى الصَّفائِحُ نَشْرَ الصّحَائِفِ، مَا لَمْ تَكُنْ بِالقَرارات تَسْري !
و يَأْبى الحَديدُ اسْتِمَاعَ الحَديثِ،إذَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ رَوَائِع شِعْري![49]

أما المعري فقد كان مفدي زكريا من المعجبين به أدبا وسلوكا[50]، ونجده في قصيدة " ألا في سبيل المجد: الإسلام يتكلم " يضمن جزءا من بيته المعروف " ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل"[51]، فيقول [من الطويل]:

أَلاَ فِي سَبيلِ المِجْدِ سَعْيِي وَ أَعْمَالِي، و للهِ مَا لَقِيتُ مِنْ غَمْرِ أَهْوالِ[52]

كما ضمن الإيقاع العام لقصيدة المعري المشهورة "غير مجد في ملّتي واعتقادي"[53]، مع بعض أبياتها في قصيدته " مصرع الفضيلة " فقال في بعض أبياتها، [من الخفيف]:

أَيُّهَا النَّاسُ وَ النَوائِبُ جَلَّى أَنُهُوضًا ؟ أَيَقَظَةً مِنْ رُقَادِ؟
فَبُكَاءُ الفَخَارِ مِنْ غَيْرِ كَدِّ "غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَ اعْتِقَادي"

...عَلِّمُوا الابْنَ وَالبَنَاتِ عُلُومَ الدْ دِينِ، وَ الكَوْنِيَات، و الإقْتِصَادِ
" إنَّ للعِلْمِ في المَمَاليكِ سَيْرًا مِثْل سَيْرِ الضِّيَاءِ فِي الأَبْعَادِ"(54)

ب) تضمين الشعر الحديث:

والشعر الحديث حاضر أيضا في شعر مفدي زكريا، فنجد شعر شوقي ،الرصافي، مصطفى كامل والشابي وغيرهم. وما سنقدمه من استشهادات إنما هو على سبيل التمثيل لا الحصر لأن الأمثلة كثيرة، وتستوجب دراسة مستفيضة ودقيقة.

لقد تأثر مفدي بشعر شوقي، وضمن أبياتا له في شعره، والملاحظ أن مفدي قد أعجب بعبارة شوقي " أنتم الناس أيها الشعراء" التي وردت في قصيدة " خدعوها"(55)، فحوّرها قائلا [من الخفيف]:

وَ إِنَّنَا الشُّعَرَاءُ النَّاسُ مَا فَتِئَتْ أَرْوَاحُنَا ، تَغْمُرُ الإِنْسَانَ إِيمَانَا(56)

كما حوَّرَ بيته الشهير " نظرة فابتسامة فسلام" الوارد في القصيدة نفسها فقال:

اعْتِرافٌ... فَدَوْلَةٌ... فَسَلامٌ.. فَكَلامٌ... فَمَوْعِدٌ... فَجَلاَءُ...(57)

ونجد مفدي قد عنوان قصيدة له بـ " وتعطلت لغة الكلام" ومطلعها:

نَطقَ الرّصاصُ، فما يُباحُ كلَامُ وجرى القِصاصُ، فما يتاح ملام(58)

والتي نظمها بسجن بربروس في فبراير1957م منددا بخذلان المنظمة الدولية للقضية الجزائرية في دورتها الثالثة عشر. وعبارة العنوان "وتعطلت لغة الكلام" هي بداية بيت من قصيدة "زحلة" لأحمد شوقي، وقد وظفها الشاعر ليؤكد على أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وانه لا مجال للمفاوضات السياسية التي لم تؤت أكلها في حل القضية الجزائرية، والحل الأكيد والأنجع بلا ريب هو دوي الرصاص، ونلاحظ هنا كيف أن مفدي حمل العبارة المستعارة كثافة دلالية جديدة منافية تماما لما كانت تدل عليه سابقا في بيت قصيدة "زحلة" وهو تعطل اللسان عن الكلام وتفعيل لغة العيون بين المحبين(59).

ودبّج قصيدته " ألا في سبيل المجد" بأبيات لمعروف الرّصافي من قصيدته الشهيرة جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي(60)، منها على سبيل المثال قوله [من الطويل]:

بَنِيَّ، فَهَلاَّ اليَوْمَ نَظْرَةُ راحِمٍ لِوالِدِكُمْ مِنْ بَعْدِ ذِلَّةِ إِهْمالِ؟
" تَمَنَيْتُمُو صَفْوَ الحَيَاةِ، وَأَنتم بِجَهْلٍ، وَهَلْ تَصْفُو الحَيَاةُ لِجُهَّالِ"(61)

وقال أيضا مضمنا شطرا من بيت للرّصافي من القصيدة نفسها، [من الطويل]:

أَلَسْتُ أَنَا مَنْ جِئْتُ لِلنَّاسِ رَحْمَةً، " وَ كَم عِبْرَةٍ فِيمَا تَقَدَّمَ لِلتَّالِي"

نَزَلْتُ، وَكَانَ النَّاسُ فَوْضَى، وَمَا لَهُمْ سوى غَدْرِ أفَّاكٍ، و خُدْعةِ دَجَّالِ[62]

كما ضمن بيتين لمصطفى كامل في قصيدته " لك الحياة " وقد كان مفدي معجبا بوطنية هذا الرجل وشخصيته، يقول [من البسيط]:

رِفْقًا بِلادِي فَأَنْتِ الكَوْنُ أَجْمَعُهُ، لَوْلاكِ كُنْتُ بِلادِي هَالِكًا فانِي

"لَكِ الفُؤادُ وَ مَا فِي الجِسْمِ مِنْ رَمَقٍ، و مِنْ دِماءٍ، وَ مِنْ رُوحٍ وَ جُثْمَانِ"

لَك الرِّقابُ،وَ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ نَفَسٍ، مُدِّي يَمِينَ الوَفا، يَا عَيْنَ إِنْسَانِي

"لَكِ الحَيَاةُ، فَجُودِي بِالوِصَالِ، فَمَا أَحْلَى وِصَالَكَ فِي قَلْبِي و وِجْدانِي"[63]

ونجد صوت الشّابي وجبران خليل حاضرا في قصيدة "الذبيح الصاعد" ويظهر صوت الشابي[64] في قوله [من الخفيف] :

وإذا الشَّعْبُ، داهَمَتْهُ الرَّزَايَا، هَبَّ مُسْتَصْرِخًا، وَ عَافَ الرُّكُودَا[65]

بينما نلمس روح جبرن خليل جبران[66] في قوله:

لَيْسَ فِي الأَرْضِ سَادَةٌ و عَبِيد كَيْفَ نَرْضَى بِأَنْ نَعِيشَ عَبِيدَا؟!

مِنَ العَدْلِ، صَاحِبُ الدَارِ يَشْقَى وَ دَخِيلٌ بِها، يَعِيشُ سَعِيدَا؟!

ليس في الأرض، بقعة لذليل لعنته السما، فعاش طريدا[67]

وخلاصة القول، أن مفدي زكريا قد استفاد من ثقافته الإسلامية ومن التراث العربي العريق والعميق استفادة عظيمة، إذ تعد لغة معجمه الشعري لغة تراثية بامتياز، بالإضافة إلى استفادته من أسلوب شعراء الإحياء وشعراء الشعر الحديث وأيضا المعاصرين له، مما يدل على أنه لم يستنكف عن الاستفادة الأدبية من كل ما رآه متميزا سواء أكان مشهورا أم مغمورا، وهكذا أصبح شعره زاخرا بالتناص الديني والأدبي والسياسي والتاريخي.

الهوامش والإحالات

1- العمدة في صناعة الشعر ونقده ج1: أبو علي الحسن بن رشيق(ت 463 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،،(دط)، (دت) ص70.

2- ينظر نفسه: ص67.

3- ينظر نفسه: ص70.

4- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: مفدي زكريا، جمع وتحقيق: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر 2003م،ص69.

5- سورة المسد: الآية1.

6- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: ص123.

7- نفسه: ص107.

8- سورة الإسراء: الآية 14.

9- اللهب المقدس: مفدي زكريا، موفم للنشر والتوزيع الجزائر ط3، 2000م، ص57.

10- تحت ضلال الزيتون: مفدي زكرياء، دار النشر تونس، 1965م، ص165.

11- من وحي الأطلس: مفدي زكرياء، طبع برعاية الملك الحسن الثاني، وقد أصدر دون كتابة دار النشر والطبعة والتاريخ، ص116.

12- اللهب المقدس: ص44.

13- سورة الفتح: الآية 29.

14- سورة هود: الآية 44.

15- اللهب المقدس: ص 17.

16- إلياذة الجزائر : مفدي زكرياء، إعداد : محمد عيسى و موسى، مراجعة محمد بن سمينة، مؤسسة مفدي زكريا والديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، (د ط)، 2004م، ص 100.

17- سورة القدر: الآيات (1، 2،3، 4، 5).

18- اللهب المقدس: ص 30-31.

19- سورة المزمل: الآية 5.

20- اللهب المقدس: ص31.

21- سورة القيامة: الآية 28.

22- إلياذة الجزائر: ص48.

23- سورة الشرح: الآيتان (5-6).

24- اللهب المقدس: ص309.

25- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى : ص243.

26- تحت ظلال الزيتون: ص159.

27- من وحي الأطلس: ص119.

28- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: ص54.

29- والبيت هو: سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم !

30- نفسه: ص62.

31- والقصيدة مطلعها: يؤرقُني التذكر حين أُمسي فأُصبح قد بليت بفرط نكسِ

على صخرٍ وأي فتىً كصخر ليوم كريهة وطعان حلسِ

32- مطلع القصيدة : **صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنّسُ نَفسي وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ**

وَتَمَاسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهرُ اِلتِماساً مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي

33- من وحي الأطلس: ص148.

34- والبيتان اللذان يظهر فيهما تأثر زكريا بقصيدة " أراك عصي الدمع " لأبي فراس الحمداني هما:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر

...سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

35- تحت ظلال الزيتون: ص161.

36- اللهب المقدس: ص29

37- من وحي الأطلس: ص23.

38- نفسه: ص 12.

39- نفسه: ص39.

40- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: ص175-176.

41- وذلك عندما يقول: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

36- والبيت هو: لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفيعُ مِنَ الأَذَى حتى يراق على جوانبه الدم

43- من وحي الأطلس: ص117.

44- والبيت هو: أنام ملء عيوني عن شواردها فيسهر الخلق جرّاها ويختصم

45- اللهب المقدس: ص21.

46- مطلع قصيدة فتح عمورية: السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

47- اللهب المقدس: ص43-44.

48- تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتى سنة 1980: الوناس شعباني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص177.

49- إلياذة الجزائر: ص100.

50- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة: محمد ناصر، نشر جمعية التراث العطف غرداية، (د ط)، (د ت)، ص131.

51- الشطر الثاني من البيت: عفاف وإقدام وحزم و نائل

52- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: ص53.

53- وتتمة البيت هي: نوح باك ولا ترنم شادي

54- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: ص76.

55- ينظر الشوقيات: أحمد شوقي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د ط)، (د ت)، م1، ص 111.

والبيتان هما:

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلاَمٌ فَكَلاَمٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

... جَاذَبَتْنِي ثَوْبِي العَصِيَّ وَ قَالَتْ أَنْتُمُ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ

56- اللهب المقدس: ص290.

57- نفسه: ص54.

58- نفسه: ص42.

59- والبيت الذي أخذ منه مفدي عبارة و" تعطلت لغة الكلام" من قصيدة زحلة هو:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيْنَيّ في لغة الهوى عيناك

60- مطلعها: ألا لفت منا إلى الزمن الخالد فتغبط من أسلافنا كل مفضال

61- أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى: ص 57.

62- نفسه: ص54.

63- نفسه: ص51-52.

64- قصيدة " لحن الحياة " وضمن بيتها الشهير: إذا الشعب يوما أرد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

65- اللهب المقدس: ص15.

66- قصيدة المواكب وذلك باستخدام مفدي عبارة " ليس في الأرض" ، مثلما كان يستخدم جبران عبارة " ليس في الغابات "

67- اللهب المقدس: ص16.